

الموسيقى والطرب من الفنون الحسية التى يستهويها الإنسان منذ نعومة أظفاره حيث تتصل اتصالا عميقا بوجوده • فالإنسان خلق طربا ، فهو يهش ويهش ويبكى ويصرخ منذ ولادته نتيجة لإحساسه بالفرح أو الغضب ذلك الإحساس هو الطرب الذى يلزم الإنسان طوال حياته ، ويُقبل عليه عن حسّ ووعى واستطابة واستجادة ومتعة فتجذبه الموسيقى بأنغامها ، وتسترعى أسماعه برنات أوتارها وجميل ألحانها • ويعد الغناء منذ سالف الأزمان من أقدم وسائل التعبير التى مارسها الإنسان ، كما يعتبر أمرا مستطابا يتعشقه البادى والحاضر ، ويضطرب له الحكام والرعية ، كما أن صناعته تستهوى الإنسان المتحضر حيث أنها تعبر عن حياته وتنفس عن رغباته بأسلوب إنسانى ، وتساهم بشكل كبير في ترقية ذوقه ، وإلى جانب ذلك فهى ذات أثر كبير في بناء نفسية الشعوب ، وفي بناء ثقافة المجتمع ، والنهوض به إذا أحسن استخدامها ، والنزول به إلى القاع إذا أساء فهمها • لقد كان فن الغناء العربى في مصر مرآة للتطورات المتلاحقة منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين ووثائق للتأريخ السياسى والاجتماعى لمصر خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الأغنية يمتزج بها العديد من الفنون الرئيسية وتتفاعل ، كما أنها الفن الأكثر قابلية للتداول بشكل واسع ، ووسيلة التعبير الأكثر وضوحا في بلورة الحالة الثقافية للشعوب ، وإطلاق الطاقات الكامنة في وجدانها •

وقد تزامنت حالة المخاض السياسى التى عاشتها مصر منذ مطلع العصر الحديث مع المخاض الفنى والثقافى ، فسياسيا تأخرت تحولات التحديث خلال الحكم العثمانى الذى جثم على صدر البلاد منذ عام ١٥١٧م وأحدث ترجعا مفعجا في جل مظاهر الحياة الفنية والثقافية ، حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر وحملت معها الحضارة الغربية بما فيها من برامج اجتماعية واقتصادية وسياسية مما خلف أثارا واضحة في ميدان العلوم والفنون والسياسة والإدارة وغيرها ، وبدأت الطبقة الوسطى المتمثلة في العلماء والتجار في الظهور مما ساعد على حدوث تغيرات اجتماعية هامة داخل البلاد ، وجعل الناس

ينظرون إلى الفرنسيين وكأنهم جاءوا من كوكب آخر^(١) . ومنذ ذلك الوقت بدأت مصر تخوض غمار مرحلة من المخاض الثقافي الذي ما زال يشكل إحدى معضلات صدمة الاتصال بالغرب ، وما صاحبها من تحديات تعد من العلامات المميزة في تاريخ الشعب المصري .

وبعد خروج الحملة ووصول محمد على إلى الحكم بدأت مصر مشروعها السياسي الذي حاول محمد على من خلاله أن ينقل حضارة أوروبا إلى مصر وأن يحول مصر من مجتمع ديني إلى مجتمع مدني ، فجعل من الجيش الأداة التي تمكنه من ذلك ، واتجه إلى التعليم الحديث معتمدا في ذلك على الخبرات الأوروبية خاصة الفرنسية ، وحرص على استجلاب الفنون والعلوم من خلال البعثات التي أرسلها ، كما حرص على بناء جهاز حكومي قادر على مسيطرة حركة التطور .

وفي عهد خلفاء محمد على خاصة في عصر إسماعيل ثم استكمال بناء الاستقلال المصري عن الدولة العثمانية الذي نشأت في أحضانها الفكرة الوطنية خاصة وأن التعليم الحكومي في عصر إسماعيل اتخذ طابعا قوميا ، وأدى إلى اتساع قاعدة طبقة الأندية وزيادة تأثيرها في الحياة العامة على نحو غير مسبوق خاصة بعد تقدم الصحافة وتطور الطباعة وتشبيد المؤسسات الفنية والثقافية التي انتشرت في ذلك العصر سواء بإنشاء الأوبرا أو المسارح أو بإيجاد الجمعيات العلمية والصالونات الأدبية وغيرها^(٢) .

وإذا كانت ملامح هذا التغيير قد برزت في عصر إسماعيل فإنها تعمقت في عهد الاحتلال الذي رغم دوره المؤثر في سيطرة النفوذ الأجنبي على كل مقدرات البلاد ، وإصابته لمشروع النهضة القومية بالإحباط ؛ فإن دوره في تغيير نمط الزعامات المصرية كان واضحا حيث تنحى العسكريون والمعممون عن مواقعهم لطبقة الأندية والمطربين الذين حملوا لواء الأفكار السياسية الحديثة أمثال لطفى السيد الذي أطلق شعار مصر

((١)) Toynbee Arnold : دراسة قدمها المؤرخ أرنولد توينبي ضمن ندوة

عبد الرحمن الجبرتي التي عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل ١٩٧٤ .

((٢)) يونان لبيب : مصر المدنية ، فصول في النشأة والتطور ، القاهرة طبعة للدراسات والنشر ، ١٩٩٢ ص ١٣١ - ١٣٢ .

للمصريين^(١) ، ومصطفى كامل الذى جعل صيحة الاستقلال تنطلق من حناجر الشباب ، ومحمد فريد الذى حاول تحويل الشعارات الوجدانية إلى واقع عملى يعتمد فيه على جماهير الشعب في القرى والمدن ، وغيره من القادة الذين نجحوا في كسب المساحة الأكبر من الزعامة السياسية وإن لم يشغلوها كلها حتى شبت ثورة ١٩١٩ التى وحدت كل طوائف الأمة المصرية تحت شعار "مصر للمصريين" . وشارك فيها كل قطاعات الشعب المصرى وتولى قيادتها المطربيين الذين ظهر منهم الزعامات التى قادت الأمة المصرية إلى النضال ضد الاحتلال وما ترتب على ذلك من حصول مصر على استقلالها طبقاً لتصريح ٢٨ فبراير ودخولها الحياة البرلمانية بعد صدور دستور ١٩٢٣م ، ثم حدوث تغييرات اقتصادية واجتماعية وفكرية عديدة ، ففى المجال الاقتصادى برزت محاولات "طلعت حرب" في أن يجعل من مصر كيانا اقتصاديا ، وفي الميدان الاجتماعى برز تأثير دعوة "قاسم أمين" لتحرير المرأة ، ووجدت صداها عند مجموعة من سيدات مصر وفي مقدمتهن "هدى شعراوي" .

وعلى المستوى الفكرى والثقافى برز من الشعراء "أحمد شوقى" و"حافظ إبراهيم"^(٢) ، و"خليل مطران الذين تحدثوا في قصائدهم عن أمجاد الفراعنة وأكدوا فكرة البعث القومى . ومن المفكرين والكتاب برز "لطفى السيد" ، و"عباس العقاد" و"محمد حسين هيكل" و"طه حسين" و"توفيق الحكيم" وغيرهم من المثقفين الذين شقوا للعقلية المصرية طريقها نحو التنوير ، وحاولوا تأكيد الشخصية المصرية في كتاباتهم .

وقد انعكست كل هذه التطورات على الناحية الفنية وعلى العناصر المركبة للعمليات الإبداعية ، التى ارتبطت بالمجتمع المصرى خاصة في الغناء والمسرح . فانطلاقاً من شعار "مصر للمصريين" ظهرت موسيقى "سيد درويش" التى تهدف للتخلص من أثر التواشيح والنبشارف التركية^(٣) والتحاميل^(٤) ومخلفاتها واللجوء إلى الفولكلور المصرى

(١) حدد لطفى السيد مفهوم هذا الشعار بأنه المصرية الخالصة التى لا تدين بالثبعية للدولة العثمانية أو تخضع نفسها لسيطرة الاستعمار .

(٢) كتب حافظ إبراهيم كتاباً عنوانه ليالى سطيح كان بمثابة بانوراما متسعة الأبعاد لكل مناحل مصر الاجتماعية والسياسية ، ركز فيها على الإدارة المباشرة لعهد الاحتلال في الفترة ما بين عام ١٨٨٢م وأساسة دنشواى ١٩٠٦م .

(٣) موسيقى تركية بحثه ، جعل منها الأثر الك منطلقاً لتطوير الموسيقى الإسلامية ، ولكنها سرعان ما اصطدمت بالموسيقى الفارسية ووقفت عند حد لا تتجاوزه .

(٤) تنطلق على لحن يوضع لمجموعة من الآلات تعرف بالثخت .

كأرضية طبيعية لخلق موسيقى قومية ، كما برزت فكرة أن أناشيد الأمة هى عنوان مدنيّتها ، ورمز ما تقدسه من ذكرى ، وتجده في سويّدائها من شعور وأمل ، وأن الأمة التى لا موسيقى لها كالفرد الذى لا روح له ، ونتيجة لأن فن الموسيقى والطرب فى مصر الحديثة قد عانى الكثير من المصاعب فقد بذلت طوال النصفين الثانى من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين جهود مضمّنية للتخلص من الطابع الأجنبيّ بعد أن سيطرت عليه المؤثرات التركية والشامية ، الفرنسية والإنجليزية والهندية ، فإن مهمة سيد درويش وتلاميذه لم تكن سهلة خلال محاولاتهم تحرير الموسيقى العربية تماما من هذه التأثيرات ، وتطوير الغناء العربى ضمن منظومة حوار جوهريه تطعيم هذا الفن بالفنون الأخرى ، والوصول به إلى درجة عالية من القدرة على التأثير القوى في الوجدان تكون أساسا لموسيقى مصرية ذات طابع قومى يحمل الموروثات الشعبية بأشكالها المختلفة ، ويفسر المسيرة الحضارية للمصريين وإبداعاتهم وهويّتهم الصرفة التى تتبع من مزاج مصرى خالص ، وتعتمد إلى إبراز الطابع الوطنى للألحان لإستهناض الهمم وإثارة الوعى والتّوير بالقضايا الوطنية ، والتعبير عن جوهر الشخصية المصرية بحلّوها ومرها . وقد نجح سيد درويش في أن يرسم بموسيقاه طبيعة الحياة المصرية الحقّة ، فرسم صورة الغزل في حوارى القاهرة بلحن "على قد الليل ما يطول" ورسم صورة لشيالى محطة مصر بلحن واضح معبر ، كما لحن للحشاشين والسقايين وغيرهم . واستطاع أن ينتج فنا جميلا أثبت به أن مصر كانت تعيش في داخله ، وأنه كان قادرا على توليف مناخ إبداعى يحوى موسيقى وغناء معا ، كما ازدهر المسرح الغنائى على يد الشيخ سلامه حجازى ، ومنيرة المهديّة وتم إحداث نقلة في الموسيقى الشرقية تم من خلالها الخروج من العباءة التركية ، وجعلها تتلاءم مع روح العصر ، ولتكون أقرب إلى قلوب الشعب ، وأبعد احتكار الخاصة عنها مما هيا الأذن العربية لاستقبال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد وأسمهان ونجاة على ، وعبد الحليم حافظ ، وفايزة أحمد وغيرهم، وأدى إلى ظهور الرّعيّل الأول من الموسيقيين الذى سايروا حركة التجديد مرورا بالقصبجى وأبو العلا محمد ، وعبد الوهاب ، وزكريا أحمد ، والسنباطى ، وأحمد صدقى ومحمود الشريف والموجى والطويل ، ومدحت عاصم ، وداود حسنى وغيرهم . وكل

هؤلاء قاموا بدورهم الرائد في عزف نشيد الأمل والأمل في مرحلة من مراحل البناء ،
وهياؤا التربة المصرية لذلك فظهرت أغاني ترمز إلى قضية العدالة الاجتماعية ، وجلاء
الاحتلال الإنجليزي وغيرها من المسائل الضرورية والملحة لمرحلة العصر . ثم جاءت
ثورة ٢٣ يوليو وانحازت للعدالة الاجتماعية وإلى ضرورة القضاء على مجتمع الاستغلال
والغوغائية السياسية وهدفت إلى إنشاء مجتمع جديد وفق مشروع حضارى مختلف في
أهدافه عن التطبيق الذى كان سائدا في العصر الملكى ، وظلت الأمور كذلك ولكنها لم
تسر كما كان متوقعا . ففى نهاية القرن العشرين دخلت الموسيقى الغربية بشكل فاضح
وبرز جيل من شباب الفرانكو آراب فاقد للهوية ، وأصبحت الألحان تدور حول "السامبا"
والووجى بوجى" بعد أن كانت تدور حول الرصد والصبا والحجاز كار^(١) كما دخلت
العولمة بالتكنولوجيا الغربية راغية في فرض قيم جديدة إهترت معها القيم الرفيعة وأصبحت
الحاجة ماسة لجمع البذور والثمار المتساقطة ، وظهور جيل جديد يطفو على السطح ، ويقوم
بإنقاذ هذا الفن من عثرته ، وإيصال قديمه بحديثه لتكون لمصر شخصيتها المميزة .

وتبعاً لذلك تم تقسيم موضوع هذه الدراسة إلى ثمانية فصول بالإضافة إلى مقدمة
وخاتمة حاولنا أن نسهم فيها بجهد متواضع في إبراز الإيجابيات والسلبيات التى طرأت على
فن الموسيقى والطرب في مصر خلال عصرها الحديث والتطورات المعاصرة لذلك .

والجدير بالذكر أننا لا ندعى أننا نعرض هذه الدراسة من منطلق ثقافة الموسيقى أو
الفنان ، كما لا ندعى أننا نحيط بكل نواحي الموضوع الفنية ، أو أن ما نكتبه هو كتابه
باحث في الموسيقى العربية وفنونها فهذا ليس هدفنا إذ لا شك أن الكثير من حروف
الهاء الموسيقية ربما تسقط منا ، وإنما ما نعرضه ما هو إلا محاولة لإثبات أن هذا
الفن جزء من تاريخ وتراث مصر ، وأنه يعد بمثابة وثائق للتاريخ الاجتماعي والسياسي
لمصر الحديثة والمعاصرة خاصة وأن العديد من العلوم الإنسانية الأخرى ترتبط به . هذا
بالإضافة إلى أن الباحث في التاريخ عندما يتعرض للكتابة في موضوع معين فإن عليه أن
يتبع خطوات المؤرخين في الكتابة من ناحية التوثيق والعرض والتحليل ، وإبراز الأثر
الاجتماعي والثقافي للموضوع ودوره في النواحي الحياتية للمجتمع وكل هذا يعد من

(١) نغمات ومقامات موسيقية .

أساسيات منهج البحث التاريخي . هذا إلى جانب محاولته استرجاع واقع الحدث بظلاله وألوانه وأصواته ورواياته حتى لو كانت غير محببة للنفس أو باهتة أو كريهة فهو لا يُجمل قبيحا ، ولا يُقبح جميلا وإنما هدفه هو البحث عن الحقيقة . أما الموسيقى أو المطرب فعندما يتعرض لمثل هذه الدراسات فإن له أفكاره الحياتية التي يتابعها وتحوم حوله ، فيدنو منها أو يبتعد عنها كما أن له انطباعاته الفنية ، ونوتته الموسيقية ، وأدواته ، وتجربته التي يجيد الخوض فيها ، هذا بالإضافة إلى صندوق ذكرياته الشخصية التي ربما يُعبر عنها ، ويحكيها ممزوجة بممارسته العملية للمهنة بظلالها وأصواتها ، وباسترجاع واقع يمكن أن يكون قد عاشه .

ولما كان الكثير من الموسيقيين والمطربين قد أدلوا بدلوهم في مثل هذه الدراسات وامتألت رفوف المكتبات الموسيقية به فإن سعينا لدراسة هذه الموضوع والخوض فيه ترجع إلى أن أحدا من المؤرخين لم يتطرق إليه من بعيد أو قريب على الرغم مما فيه من ثروة فنية خالدة أضافت إلى مناحي حياة المجتمع المصري الكثير خاصة وأن الموسيقى والطرب يعدان من ألوان التعبير الإنساني لأى أمة من الأمم ، فهما كالألفاظ والجمل التي تحمل المعانى وتكشف عنها . ومع أن للمؤرخ أدواته كما ذكرت فإننى لا أنكر أننى استفدت كثيرا مما كتبه من سبقونى ، وما وقعت عليه يدي من مؤلفاتهم ليس لمحاكاتهم فيما كتبوه على طول الدوام لأن ذلك يتصادم مع غايته من هذا الكتاب وإنما لإبراز البعد التاريخي للموضوع وتأصيله وتوثيقه ، فقد استعرضت تطور الموسيقى والطرب في مصر من خلال منظور سياسي واجتماعي منذ بداية تاريخ مصر الحديث إلى الوقت الحالي خاصة وأن الموسيقى في مصر تعد كمعرض تاريخي يربنا أثر الأحداث التي اجتازتها مصر خلال هذه الفترة .

♦ وعلى الله قصد السبيل ،،

د . عبد المنعم الجميلى